القسم الأول

اللهجات وعوامل تكونها وأثرها فى النحو

تعريف اللهجة:

لعل خير ما يمكن أن يقال في التعبير عن اللهجة عند المحدثين: أنها طريقة من طرق الأداء للغة، ذات أنظمة وقوانين، تلاحظ في ظل حالة اجتماعية خاصة، ويراعيها المتكلم عند صوغ اللغة فتميز طبقة عن أخرى، ويختلف بها مكان عن آخر، وتعد جانبًا من جوانب التنفيذ الفعلي للغة، ومن ثمّ كانت لهجات المهن، ولهجات الحرف المختلفة، كما كانت اللهجات التى تنتمي إلى بيئات خاصة كاللهجات العربية على امتداد الوطن العربي مثل: المصرية، والسورية، واللبنانية، والعراقية(*)...[1].

ويبدو أن هذا هو ما كان يقصده منها القدماء، إذ نحس من أقوال أصحاب المعاجم أنها تعني عندهم: طريقة الإنسان التي جبل عليها فاعتادها ونشأ عليها في أداء لغته[2].

ومن الملاحظ أنهم قد استعملوا فى التعبير عنها ألفاظًا أو مصطلحات مثل: اللغة، اللحن، اللسان.

(*) عرف بعض الباحثين اللهجة بقوله: كيفية الأداء الموسيقي للنطق بالكلمة ولمخارج حروفها وأصواتها ونغمة أداء الجملة إثباتًا ونفيًا واستفهامًا وغير ذلك مما يشمل أوضاع الحروف وحالات الإمالة والإدغام والقلب والبدل والتقارب..

من بحث لعلي بن عقيل عن لهجة وادي حضرموت المنشور بمجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية -ع ٣٨ س٧ عام ١٤٠١هـ ص ١٣١ وبعدها..

ومما يعاب على هذا التعريف أنه لم يشر إلى متن اللهجة من قريب أو بعيد وقصره على طريقة الأداء فسحب.

(١) محمد وجدي -دائرة معارف القرن العشرين- م ٨، ٣٧٤، معجم المصطلحات العلمية والفنية -يوسف خياط- ص ٦١٦، اللغة بين المعيارية والوضعية -تمام حسان- ص ١٨٢ وما بعدها.. وغيرها «بتصرف». وفي اللهجات العربية -إبراهيم أنيس- ص ١٦ وما بعدها.. بتصرف.

(٢) ابن منظور: لسان العرب -مادة لهج ٣: ٤٠١ وما بعدها.

obeikandi.com

ويبدو -لي- أن ما كان يهدف إليه الخليل «ت: ١٧٠هـ» بقوله: «والقنوع: بمنزلة الهبوط- بلغة هذيل- من سفع الجبل»[١].

وأبو زيد الأنصاري «ت- ٢١٦هـ» على الأرجح: بقوله: «سخوت النار، وسخيتها لغة»[٢].

وسيبويه «ت- ١٨٨هـ» بقوله: «وإن شئت قلت: إذا كان غداً فأتني وهي لغة تميم.

وقوله: وهو لغة أهل الحجاز»[٣].

وابن قتيبة «ت- ٢٧٦هـ» بقوله: «باب ما جاء فيه ثلاث لغات من بنات الثلاثة... وما جاء فيه أربع لغات... وما جاء فيه خمس لغات وما جاء فيه ست لغات»[٤].

وابن دريد «ت: ٣٢١هـ» بقوله: «وسُقَى في لغة طيء وغيرها وبمعنى سقي، والخضاب: نخل الدقل بلغة أهل نجد»[٥].

وابن جني «ت- ٣٩٢هـ» في خصائصه بقوله: «باب اختلاف اللغات وكلها حجة»[٦].

وابن فارس «ت- ٣٩٥هـ» في باب اللغات المذمومة بقوله: «وبنو تميم يلحقون القاف باللهاة حتى تغلظ جداً فيقولون: القوم بين الكاف والقاف وهذه لغة فيهم»[٧].

ولغة أهل المدينة: حضرت[٨].

---

(١) الخليل بن أحمد -العين- مادة قنع ١: ١٩٣- ط. بغداد.

(٢) أبو زيد الأنصاري- النوادر في اللغة ٢٤٢.

(٣) سيبويه- الكتاب ١: ١١٤، ٣٦٣- ط بولاق.

(٤) ابن قتيبة- أدب الكاتب ٤٦١ وما بعدها.

(٥) ابن دريد- الجمهرة في اللغة ١: ٣٢، ١٣٦.

(٦) ابن جني- الخصائص ٢: ١٠.

(٧) ابن فارس- الصاحبي فى فقه اللغة ٣٥، ٣٦.

(٨) معجم مقاييس اللغة ٢: ٧٧- مادة حضر.

وصاحب المخصص «ت- ٤٥٨هـ» في مخصصه إذ يقول فيه: «باب ما خالفت فيه العامة لغات العرب من كلام»(١).

والميداني «ت- ٥١٨هـ» بقوله: «أتى عليهم ذو أتى على فلان، وهذا مثل من كلام طيء وذو في لغتهم تكون بمعنى الذي»(٢).

وأبو بكر الأنباري «ت- ٥٧٧هـ» بقوله: وأَخَافَهْ لغة لخم». وقوله في الأضداد: «وحسب يحسب بكسر السين منهما لغة قريش»(٣).

وأبو حيان «ت- ٧٥٤هـ» بقوله: «ولغة بني عقيل وبني كلاب اختلاس حركة الهاء في به وله»(٤).

والسيوطي «ت- ٩١١هـ» في مزهره: «معرفة الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات»(٥).

وما روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من أنه قال: «عليٌّ أقضانا وأبيٌّ أَقْرَأُنَا، وإنَّا لَنَدَعُ كَثِيْرًا مِنْ لَحْنِ أُبَيٍّ»(٦).

وقوله أيضًا: «تَعَلَّمُوا الفَرَائضَ واللَّحْنَ والسَّنَنَ، كَمَا تَعَلَّمُونَ القُرْآنَ»(٧).

وما روي عن أبي إياس- رضي الله عنه- «. . . لَوْلاَ أَنْ يَجْتَمِعَ الناسُ عَلَيَّ لَقَرَأْتُ بِهَذَا اللَّحْنِ»(٨).

وأبي مهدية من قوله: «لَيْسَ هذَا مِنْ لَحْنِيْ ولاَ لَحْنِ قَوْمِي»(٩).

---

(١) ابن سيده- المخصص: ١٤: ٤٤.

(٢) الميداني- مجمع الأمثال ١: ٦٨.

(٣) الأنباري- الإنصاف ٢: ٥٦٨ وما بعدها، الأضداد في اللغة ١٠.

(٤) أبو حيان- البحر المحيط ٣: ٧١.

(٥) السيوطي- المزهر ١: ٢١٤.

(٦) مسند الإمام أحمد ٥: ١١٣، ط. بيروت.

(٧) سنن الدارمي- كتاب الفرائض ٢: ٣٤١ط- دار إحياء السنة،

(٨) مسند الإمام أحمد ٥: ٥٥ ط بيروت.

ومثلها ما روي من أن الرسول ﷺ قال: «**اقرأوا القرآن بلحون العرب**». . الصحاح ٨: ٢١٩٣.

(٩) الزمخشري- أساس البلاغة ٥٦١.

وبعض المفسرين من قولهم في بيان المقصود باللسان من قوله تعالي: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ [إبراهيم: ٤] من أن المراد: هو لغة قومه سواء أكانوا من قريش أم من غيرهم من العرب[١]. وما ردده القرآن الكريم في عدة مواضع من استعمال اللسان بمعنى اللغة.

وأبو عمرو بن العلاء «ت ١٥٩هـ» بقوله: «مَا لِسَانُ حِمْيَرَ وَأَقَاصِيْ الْيَمَنِ بِلِسَانِنَا»[٢].

أقول يبدو -لي- أنهم إنما كانوا يقصدون -في أغلب الاحتمالات- بما قالوه فيما أوردناه عنهم سابقًا -طريقة من طرق الأداء للغة، تراعي في ظل حالة اجتماعية خاصة- بناء على أن هذه الألفاظ «لغة- لسان- لحن- لهجة» إنما كانت تفيد -فيما تفيده- عند معظمهم ما قررناه سابقًا.

ولعل استعمال اللسان بمعنى اللهجة أحيانًا قد جاء من قبل أنه الأساس الذي تنبثق عنه هذه اللغة الخاصة والعضو المباشر في عملية إحداثها، ومن عادة العرب أن تطلق الشيء على الشيء الذي هو منه أو من سببه.

أما اللغة: ففي ظني أنها اكتسبت هذا المعنى من قولهم: «لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه[٣]. قاله ابن الأعرابي»[٤]. فكأن أصحاب لغة الحجاز أو تهامة أو نجد... قد تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة الآخرين، أو لارتباطهما الوثيق بالمادة الصوتية.

وقريب من هذا مفهوم اللحن، فمهما قيل فيه فإن أوضح معانيه أنه خروج عن النظام المتبع والتقليد السائد عند أصحاب لغة مّا والتفات إلى سواه[٥]. ولا شك أن صاحب اللهجة قد مال عن الطريق الذي كان يسلكه في اللغة المشتركة إلى مذهب لغوي ذي أنظمة وقوانين تختلف نوعًا ما عن اللغة العامة التي يلتزمها الجميع.

---

(١) الألوسي- روح المعاني ١٣: ١٨٥.

(٢) ابن سلام الجمحي- طبقات الشعراء- ص: ٨- ط بيروت.

(٣) الأزهري- تهذيب اللغة ٨: ١٩٨- الدار المصرية.

(٤) ابن منظور- لسان العرب ٣: ٣٧٩- مادة لغا- ط بيروت.

(٥)الفيومي- المصباح المنير ٢: ٦٦٧- مادة اللام مع الحاء.

أما اللهجة: فلعل إطلاقها على هذا النمط من اللغة قد أتى من أن ولع صاحبها بها وعشقه إيـاها قد دفعاه إلى أن يلهج بها ويثابر ويتصرف وفق ضـوابطها ويعتاد نظمهـا وتقاليدها الخـاصة، ومن هنا صح أن تطلق هذه اللفظة على ذلك المفـهوم الذي قررناه سابقًا وأن تعبر عنه.

وبعد: فإنني أعتقد أن العربي الذي كان يستعمل هذه الألفاظ كان على دراية بما تعنيه من مدلولات خاصة، ولابد أنه قد لاحظ نوع اختلاف بين لفظ وآخر، لكنه استعمل بعضها مكان بعض بحيث أصبح يفيـده بمقتضى العرف وكثرة الاستعمال. ولهذا فـإنني أرجح أن إطلاقهم (اللغة، اللسـان، اللحن)، بجانب استعـمال ثبت بالقطع قيـامه بقبيلة معـينة من القبائل العـربية الكثيرة، وورد ضمن عـبارة نقلت عنها، أو قول روي عن بعض أبنائها، لا يقصد به -في أقصى الاحتمالات- سوى ذلك الاستعمال الخاص بجماعة لغوية ما، وهو ما خصه الاصطلاح العرفي -فيما بعد- وأطلق عليه اسم اللهجة.

صلة اللغة باللهجة:

إذا تصفحـنا بعض كتب النحاة الأوائل وجدنا أن مـعظمهم قد استـعملوا لفظ اللغة في التعبير عن طريقة من طرق الأداء اللغوي فيها -وهو ما أشرنا إليه سابقًا- واصطلحنا علي تسميـته باللهجة، فكيف ساغ لهؤلاء النحاة أن يـعبروا بلفظ اللغة عن استعمال ثبت بنقل الأئمة عن قبائل العرب أنه لهجة خاصة ببعضها؟.

وللإجابة عن هذا السوال نقول:

إن اللهجة هي لغـة من يتحدثها، ووسيلته إلى التـفاهم مع الآخرين، وهي إنما تجري علي أسس وأصول مرعـية، يراعيها المتكلم في الصوغ القـياسي حينًا، وفي مراعاة المستوى الصوابي حينًا آخر.

وإذا كانت اللغـة تعني: أصواتًا يعبـر بها كل قوم عن أغـراضهم[1]، ووسيلة إنسانيـة خالصة لتوصـيل الأفكار والانفعالات والرغبـة عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية، ولها أنظمتها وأسسها التي يراعيها المتكلم، ويصدر قوله

(١) ابن جني: الخصائص ١: ٣٥.

علي هديها[1]، فإن اللهجة تشاركها في هذا المفهوم، وتنفرد عنها بأنها القالب الذي تؤدّى فيه اللغة بقوانينها وضوابطها، وعن طريقها تتشكل هذه اللغة في ألسنة أهلها، وتعتريها عوامل التطور والتقدم، أو عوامل الضعف والتحجر.

وبناء على ما تقدم فإن العلاقة بين اللغة -بالمعني العام الذي ذكرناه- واللهجة، إنما تقوم أساسًا على ارتباط عام بخاص، واللهجة عبارة عن نظام لغوي تعبر به جماعة بشرية عن أغراضها، لكن هذه الجماعة جزء من الجماعة الكبيرة التي تنسب إليها اللغة، كما أنها في الوقت ذاته تتصل ببيئة لغوية هي جزء من البيئة الكبرى للغة، ولها نظامها الكامل الذي يشمل الأنظمة الفرعية الأخرى في اللغة: وهي النظام الصوتي، والنحوي، والدلالي[2].

يمكن إذن اعتبار اللهجة وحدة صغرى من نظام لغوي أكبر تكوّنه عدة لهجات، وتتشارك في صنعه جماعات لغوية ترتبط فيما بينها بوشائح القربى أو تشابك المنافع وتبادل المصالح، وقوة ارتباط أفراد الجماعة اللغوية ببعضها -تحت أي ظرف- أو عدمه يؤثّر -بلا شك- علي تماسك لغتها وعدم تفرقها أو تشعبها وانقسامها.

وليس من شك في أن الإحساس بالفرق بين مستويات اللغة الواحدة، قد ظل ماثلاً في الأذهان من قديم جدًا، وتحدّثنا الروايات «أن الإغريق قد طبقوا أسس المقارنات بين اللغات على لغتهم اليونانية القديمة، مما ساعدهم علي التفريق بين اللهجات الفصحى للغة الفصحى اليونانية القديمة، ولعل أول دليل على الوعي بالفرق بين اللغة الفصحى واللهجة؛ ما قاله عالم البلاغة كونتلين «القرن الأول الميلادي»: «إنّ القدرة على التحدث باللغة اللاتينية شيء، والقدرة على التحدث بها مع مراعاة أصول النحو شيء آخر»[3].

وقريب من هذا، كان موقف العرب عامة من أمر هذه العربية ولهجاتها المتعددة، فمن المؤكد أن العربي الوافد من مختلف قبائلها على أسواق العرب

(١) جسبرسن- اللغة بين الفرد والمجتمع- ص ٦ وما بعدها. . بتصرف.

(٢) ينظر بعض هذا: في اللهجات العربية -إبراهيم أنيس- ص ١٦ وما بعدها.

(٣) ماريو باي- لغات البشر- وما بعدها- ترجمة صلاح العربي.

ومنتدياتها كان يستنكف أن يلقي خطبته أو قصيدته بلهجة قومه التي اعتاد عليها لسانه، إلا أنه إذا ودّع تلك الأماكن، وأقبل علي عشيرته ومواطن قومه، وجد من العنت والمشقة أن يخاطبهم في شئون الحياة اليومية بغير ما ألفوه كلامًا، ونشأوا عليه عادة[1]، وتشكلت على وَفْقِه أعضاؤه النطقية، ولكل بيئة عادات كلامية لا يستطيع معظم أفرادها أن يتزحزحوا عنها بسهولة، ويظهر أن هذه الازدواجية كانت أمرًا مألوفًا عند عربي الجاهلية، ممن وصل إلينا عن طريقه بعض مظاهر هذه اللغة في مراحلها المتقدمة التي سبقت فترة التدوين والكتابة.

ولا شك أن القرآن الكريم قد أطل على واقع لهجي لأمة العرب؛ فراعى أمر لهجاتها، وبارك مسعى أبنائها في النطق بألفاظ على وَفْقِ تكوينهم العضوي «الفسيولوجى»، إسهامًا منه في التيسير على هذه الأمة التي تفرقت قبائلها في أنحاء الجزيرة، واصطبغت عاداتها النطقية بعوامل بيئية واجتماعية وخلقية.. أدت إلى اختلاف بين لهجاتها -في معظم مظاهرها اللغوية -عبر حقب وأزمان متطاولة.

ومن هنا فلأمرٍ مّا قُصِدَ من ورائه التخفيف على أبناء هذه الأمة من أن ينالهم العناء والمشقة نتيجة إلزامهم بما لا يطيقونه فروعيتْ بعض صفات لهجاتهم، وأُبِيحَ لهم أن يتصرفوا فيه على حسب ما تقتضيه عاداتهم النطقية وغلبة استعمالاتهم اللغوية[2]، وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك، فلما كثرت القراءات، وافترق الطريق بأصحابها، كثرُ الاختلاف بين طرق القراء، فرأى عثمان -رضي الله عنه- أن يوحِّد جميع المسلمين على حرف واحد، وألزم الجميع بالتزامه، -وسيأتي الحديث عن ذلك-، ومع ذلك ظل الإرث السابق من اختلاف لهجات القراء التي أثرت في قراءاتهم الصحيحة المسند خير شاهد على اختلاف قبائل العرب.

****

(١) إبراهيم أنيس- في اللهجات العربية: ٤٠: ٤٦ بتصرف.

(٢) صبحي الصالح -في علوم القرآن- ص ١١٣ وما بعدها- بتصرف.